مجلة علمية، ثقافية، جامعة، فصلية

ثقافة الهند

المجلد ٥٢ العدد ٢

٢٠٠١م

رئيس التحرير

س. ضياء الحسن الندوي

المجلس الهندي للعلاقات الثقافية

آزاد بوان، نيو دلهي

الهند

محتويات العدد

المزايا الأسلوبية
في كتاب حجة اللّه البالغة للإمام ولي اللّه الدهلوي

بقلم: د/ عبد الماجد القاضي

يتصدر إسم الشيخ الإمام ولي اللّه الدهلوي قائمة النوابغ القلائل الذين انجبتهم بلاد الهند ممن يتجمل بهم تاريخ المعرفة و الثقافة الإسلامية، و لم يكن الإمام الدهلوي رجلا عاديا في مواهبه و عطاءه في شتى مجالات الثقافية و الحياة الحضارية و شهد التاريخ انه أصبح رمزاً لتغيير مجرى الأحداث في مجال العلم و المعرفة و اعتبر التاريخ شخصيته مَعْلما يفصل ما بعده بما قبله.

تتجلى عبقرية الإمام الدهلوي في غير مجال واحد، فنراه نقطة انطلاقة كبرى إلى إعادة بناء الصرح الحضاري على الأسس القديمة و لكن بمنظور جديد و برؤية و بصيرة نفاذه. كانت شخصيته تجسيدا لحركة قوية تهدف إلى خلغ الجمود و الركود و العقم الفكري الذي توارثه المجتمع المسلم لأحقاب من الانحطاط و التخلف و الانسحاب من مجالات الحياة.

ولد الإمام الدهلوي في ١٧٠٣م و نشأ في عصر التفكك السياسي و الاضطرابات و الحروب الداخلية في العالم الإسلامي، و غاية الامر أن الخلافة العثمانية كانت فقدت سيطرتها و مهابتها، و تشتت شمل الإمبراطورية المغولية الكبرى في بداية القرن الثامن عشر الميلادي و فقدت الكثير من هيمنتها على هذه البلاد و ضعف سلطان المغول و نشات دويلات على أنقاض هذه الدولة

العظيمة، و في الوقت ذاته كان الاستعمار الغربي قد بدأ يدب إليها دبيبا من وراء استار و تحت شعارات خادعة و استمر شبه القارة الهندية في مهب عواصف التغيير الهوجاء حتى غيرت كثيرا من ملامح خارطتها، فمحت حدودا و اضافت حدوداً اخرى و بدلت صبغتها و جاءت بتشكيلة مغايرة تماما.

في جو هذه الهزائم المتراكمة على الساحة السياسية و قلة الإستقرار و الخواء الروحي و المعنوي بسبب توقف أمة العطاء عن عطاءها و في حين بدا كانه نضب معين قدراتها و تقلص ظلها و توقفت مسيرة تقدمها. امسى العالم الإسلامي صورة بائسة للإنهزامية و الإستسلام و الخضوع. و تقدر جلالة الدور الذي مثله الدهلوي في هذا السياق بجراته التي حملته على ان يقف مواقف التحدى امام وطاة الأوضاع و يشق طريقه في خضم هذه الظروف المدلهمة و يعكس إتجاهه بدل أن ينساق وراء الزمان و إرادته و إملاءه. و تتمثل ماثرته الكبرى و المعيته في إيقاظ روح المبادرة في تلك الأوضاع الرهيبة. و لا يسع المجال للخوض في خدماته في إحياء التراث الإسلامي و إسهاماته القيمة في إثراء المكتبة الإسلامية.

إن نظرتي كمتطفل على مائدة الأدب و اللغة تتابع و تراقب الخصائص اللغوية و التعبيرية التي تحلت بها آثار الإمام الدهلوي و تقتصر هذه الدراسة في إطار مساهمته في إنعاش اللغة العربية بأصالتها و نقاءها في ربوع هذه البلاد، و لا نستطيع أن نقدر مدى حيوية دوره ما لم نلاحظ خلفية الثقافة العربية في بلادنا، فلم ترسخ قدم العربية في بلاد الهند في اي مرحلة من مراحل التاريخ لانها لم تكن قط لغة الدولة الرسمية، غير انها كانت موضع الحب و الاحترام لدى الجميع لتضمنها على كنوز الشريعة السمحة و لكونها مفتاح مصادر الشريعة الإسلامية، و تناوبت التركية و الفارسية صفة اللغة الرسمية في

مختلف المراحل، و مع ذلك لم تزل العربية حائزة على مكانة المرجعية تدرس و تدرّس لتسهيل الوصول إلى مصادر العلوم الإسلامية و لكنها بقيت في معظم الاحيان حرفا مكتوبا بدل أن تكون صوتا مسموعا، و المستجدات و التطورات اللغوية التي ظهرت في بلاد العروبة كانت تنعكس على وضعها في هذه الديار، فكان إضمحلالها هنا دليلاً على ضعفها هناك و بذلك كان مثله كالغدير الذي يستمد من البحر فإذا ركد ماء البحر و فسد فما ظنك بالروافد و الغدر التي تستقى منه.

و المزايا الأسلوبية المدهشة التي نلقاها لدى الدهلوي هي نفسها التي آل إليها الامر و استقر عليها الأسلوب العلمي الرزين بعد عصر النهضة العربية الحديثة التي أسهم في تحقيقها جمال الدين الافغاني و الشيخ محمد عبده رفاعة الطهطاوي و الشيخ رشيد رضا وغيرهم. و ربما يمكننا القول بأن تاريخ نهضة العربية في الهند أقدم منه في مصر و البلدان العربية الأخرى، و تعد مفخرة بحق و جدارة. و رغم أن الدهلوي لم يكن مجاله اللغة او الأدب بالمعنى الشائع الاعم، لكن الذي يثير الإعجاب و يجعل مساهمته ذات أهمية قصوى لدى الباحثين في تطور الأساليب اللغوية و ظواهر التطور اللغوي هو أنه تربى على النمط التقليدي الجاف و ألف سمعه بتلك المحسنات و البدائع اللفظية المصطنعة التي درجت عليها اللغة العربية في أيام تخلفها و تراجعها من مجال العطاء و إثراء الحضارة البشرية، فدرسته أعماله من الناحية اللغوية تكشف عن سليقته الادبية البديعة التي مكنته من الإعراب عن المعاني الدقيقة و المفاهيم اللطيفة بابلغ اسلوب و افصح عبارة و اتسعت له آفاق القول حتى تناول بالبحث النصوص الواردة في أبواب العقائد و العبادات و المعاملات و الإحسان و التزكية و المقامات و الاحوال و طرق كسب المعاش و التبرع و التعاون و تدبير المنزل، و الخلافة و القضاء و الجهاد و الأطعمة و الأشربة

و اللباس و الزينة و آداب الصحبة و الاجتماع و بحث أخيرا في الفتن و الملاحم و اشراط الساعة و استعرض السيرة العطرة بالإيجاز. و قام بتحليل هذه المواضيع بأسلوب يمتاز بالدقة و الرصانة حيث لا تنقطع فيه صلة هذه القضايا و الاحكام بالحياة و المدنية و علم الأخلاق و تتجلى من خلال تحليله المزايا الحضارية التي انطوت عليها الشريعة السمحة و ما لها من صلة قوية بالسعادة البشرية و ما يترتب من آثارها على الحياة الإنسانية و بذلك احتوت كتاباته على لباب علم الإجتماع و السياسة و الحقوق و الأخلاق.

و هكذا تتنوع الأغراض و المواضيع التي يعالجها لكن الأسلوب و التناول لا ينحط من مستواه الرفيع و مثل هذه القضايا الدقيقة التي طرحها الدهلوي كثيرا ما تند عن متناول التعبير الوافي لأنها بطبيعتها ادخل في الفلسفة و التجريد و من ثم تتعقد مسئولية الكاتب في دفع مظان اللبس و سوء التفاهم. نقتبس على سبيل المثال عبارته في بيان حكمة الحج فيقول: "كما أن الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كل مدة ليستميز الناصح من الغاش و المنقاد من المتمرد و ليرتفع الصيت و تعلو الكلمة و يتعارف أهلها فيما بينهم فكذلك الملة تحتاج إلى حج ليتميز الموفق من المنافق و ليظهر دخول الناس في دين الله افواجا، و ليرى بعضهم بعضا فيستفيد كل واحد ما ليس عنده إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة و التراثي". (٢)

و يقول في الاحتساب و النية " إعلم أن النية روح و العبادة جسد و لا حياة للجسد بدون الروح، و الروح لها حياة بعد مفارقة البدن و لكن لا تظهر آثار الحياة كاملة بدونه". (٣)

و هكذا تدل مؤلفاته على أن مقدرته اللغوية المتميزة كانت دوما تواكب فكره و استمر هذا العطاء الفكري و الثراء اللغوي و ساهم في إخراج مجموعة من الآثار العلمية المجيدة التي تضمن تخليد ذكراه على مدى الأجيال و القرون.

بتحليل الآثار العلمية و الأدبية التي ورثناها من أيام ركود الحياة الإبداعية يبدو أن الكاتب لم يكن يتملك زمام اللغة و لم يكن يقودها و يتصرف فيها حسب المعاني و إنما كانت الانماط اللغوية المتعجرفة تتحكم في تسيير المحتوى و توجيهه. و بالنسبة للهند كان الدهلوي أو ل من سخر اللغة لتخدم المعاني التي جاشت في خاطره فكانت طوع يمينه يتصرف فيها لتكون أداة النقل و التبليغ و وسيلة التفاهم و تخليد الأفكار في حيز الأسلوب العلمي الرصين الذي لا يطغى فيه اللفظ على المعنى و لا تتعدى فيه المعاني على اللفظ و يتحقق القسط و الإتزان بين الشكل و المضمون.

اما كتابه "حجة اللّه البالغة" الذي لم يحظ للأسف الشديد العناية و الدراسة المركزة التي نقضى بها جزا من الدين الذي لم تزل الأجيال المتلاحقة تماطل في قضاءه و عسى أن يغتفر التاريخ ما فرطنا في جنب هذا الكتاب العظيم. فقد وصفه الشيخ العلامة الندوي في قوله "لم يؤلف كتاب ـ في حدود علم المؤلف، و في اللغات التي يعرفها ـ في تاييد أي ديانة من الديانات و تفسيرها اللبق الحكيم و فلسفتها الجامعة المتناسقة كهذا الكتاب في منزلته و مكانته، و إن كان قد الف فيه فإنه ليس بين ظهراني العلماء و الباحثين في الدنيا العلمية المعاصرة". (٤)

فالكتاب ظرفا و مظروفا أي محتوى و أسلوبا يتطلب دراسة و عكوفا لاستخلاص المعرفة و الفوائد الجمة التي انطوى عليها فإذا كان غاية في علم الأسرار و الحكم فإنه كذلك غاية في حسن الأسلوب و تسلسله و سيلانه مع الطبيعة و يلاحظ كذلك أن الكتب العلمية عادة ما تصاب بجفاف التناول و العرض و تفشل في جذب عناية الدارس و استمرارها لكن كتاب "حجة اللّه البالغة" خير نموذج لمتعة الأسلوب العلمي الذي يتحلى بالظرافة و الإبداع.

يقول الأستاذ محمد اسماعيل الندوي "قد أعاد الدهلوي إلى اللغة العربية رونقها و صفاءها و حيويتها و قوتها في التعبير و البيان بعد أن تكبدت من الخسائر على أيدى المتلاعبين و العابثين". (٥)

و تتلخص مزاياه الأسلوبية في النبوغ الفكري و الإبداع اللغويّ و إذا اختزلنا هذا في كلمة واحدة فيمكننا أن نعبر عن هذه الظاهرة بالاصالة. و في نهاية المطاف ليست الأصالة كلمة تعبر عن الميزة الأسلوبية فحسب و إنما هي منهج و راسلة نستوحيها من تراث الإمام الدهلوي و تزداد.

الهوامش:

١ ـ انظر الشيخ أبو الحسن الحسني الندوي: الإمام الدهلوي: سلسلة رجال الفكر و الدعوة، الجزء الرابع دار القلم كويت ط/١، ١٩٨٥م ص ١٨٦

٢ ـ الإمام ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة، دهلي، كتب خانه رشيديه ط/١ ١٣٧٣هـ ص ١/٧٦

٣ ـ نفس المصدر السابق ٨٣/ ٨٤ ج ٢

٤ ـ الإمام الدهلوي للشيخ الندوي: ص ١٦٨

٥ ـ محمد اسماعيل الندوي: تاريخ الصلات بين الهند و البلاد العربية، دار الفتح للطباعة و النشر، ط/١ ب ت ص ١١٥

❖❖